

شهدت الساحة الأدبية والنقدية حركة فكرية نشطة، برز في أحد أوجهها التجريب الروائي، بشكل واضح في مختلف الأعمال الروائية العربية، وظهر النص السردى العربى خليطاً من البنيات المتصورة، تنفرد بخصوصياتها المحلية المنبثقة من كلِّ قُطر ترمي بثقلها على كاهل كتّاب الرواية؛ تجعل الباحث يقف حائراً أمام ما يُطرح عليه من أعمال روائية، تعرض نفسها للقراءة، كما يبقى حائراً أمام مناهج النقد الحديث التي تختلف وسائلها الإجرائية، فبأيّ منهج يستعين للوصول إلى دلالة النص ومنه إلى حقيقته؟ وأيّ منها أنسب للمسك بما يطمح إليه؟.

لا يتمّ اختيار موضوع البحث من محض المصادفة، وإنما يتمّ وفق عوامل تحيط بالباحث، لذا وُجِدَت جملة دواعٍ ومسوغات وقفت سنداَ لاختيار هذه المهمة الصعبة، كان في طليعتها رغبتى في دراسة الرواية العربية المغاربية بروية حديثة، تكشف عن قيمة هذا المنجز العربى، والبحث فيه والامتداد إلى حيث أفقه الباذخ، وقد قادنى البحث إلى روائى حَقَّق قفزة نوعية على مستوى الوطن العربى، فقد شدَّ الأنظار لنتاجه الروائى وفي اعتقادى أنه لم يحظ بالاهتمام الكافى فى الدراسات النقدية العربية، والذي يتناسب مع مستوى الحضور الأدبى الذى يتمتّع به.

لئن تلقَى الخطاب النقدى العربى المعاصر جملة من النظريات، التى حاولت تفسير بنية النص السردى؛ لتؤسس فى ضوئها توجهاً منهجياً يراعى خصوصية السردية العربية، فقد كان مجال التجريب الأكثر تداولاً هو النص الروائى العربى، بوصفه الخطاب الأدبى الذى يستجيب أكثر للمقولات السردية، ومفهوماتها، وأدواتها الإجرائية انطلاقاً من هذا التصوّر الإجرائى للنظرية السردية تبلورت لدى أسباب اختيار البحث فكان الروائى العربى: "إبراهيم الكونى" الذى سأخصه فى نتاجه الروائى المتمثل فى رواية "التبر" والموسوم بـ: "البناء السردى فى رواية التبر لإبراهيم الكونى".

لعلّ الإشكالية التي أطرحها من خلال هذه المدونة "التبر" يمكن عرضها كآلاتي:  
 . الكثير من الفضاءات التي تُقرأ هي وليدة ذاكرة كتب، لا ذاكرة عين .  
 . لماذا تُهمل الصحراء؟ وأغلب مساحات الوطن العربي صحاري؟ بينما لا يُرسم لها في مخيلة القارئ إلا المدينة أو البحر.  
 . الصحراء في المخيلة هي الخواء، بينما هي مساحة يتألق فيها النّراء، والتنوّع والجمال فيها البساطة، وما زال فيها للإنسان، وللروح مكان.  
 . هل يمكن عدّ رواية "التبر" رواية سيرة ذاتية؟ أم رواية حدث؟  
 . كيف عبرت الرواية مضموناتها؟

. والسؤال الآخر هو ما الفرق بين بناء السرد والبناء السردى؟، هل أبحث عن السرد أم عن بنيته عند الشروع في عملية التحليل الفني التطبيقي لمقتضيات التنظير؟  
 لا بدّ لكل جهدٍ علمي من فرضية، يصدر عنها ويحاول إيجاد حلول مناسبة لها أو عرضها عرضاً علمياً، يجعل موضوعاتها في دائرة الضوء، ومحور الاهتمام والعناية، لذا تنطلق فرضية هذه الدراسة من الفكرة الآتية:

اتجهت دراستي نحو الرواية كونها جنس أدبي؛ لاعتقادي أنّها الوسيلة الأنسب للتعبير عن الحياة المعاصرة، والواقع المعيش، بكلّ حيثياته المتداخلة، فهي تمتلك قدرة فائقة على تمثيل قضايا العصر، وعلى تشكيل الواقع جمالياً، مُحاولاً تصوير أدقّ تفاصيله ووصف مكوّناته، ومواكبة حركة المجتمع وأحداثه.

رواية "التبر" المختارة حوار البطل "أوخيد" مع جملة "الأبلق" الذي ميّز الرواية كونه يُعدّ منحىً موضوعياً لم يسبقه إليه كثيرون. فالجمل هو حيوان ديوان العريكما أنّ الجمل يشكّل ويُشاكل مخيلة القارئ. فهو لم يُر في صيغة سردية من قبل، وبالتالي لا مثيل لهذا الجمل "الأبلق"، لكن العرب صاغوا حيوانهم بأشعارهم، منذ أنّ وجدّ العربي في الناقة ملاذ قوة.

الروائي "إبراهيم الكوني" من القلائل الذين تناولوا عذابات الصحراء، وعذوبة الرمل أو ثورته في وجوه أهله. فالعالم السكاني في أعمال "إبراهيم الكوني" ليس بعالم المدن العربية، والريف القروي، كالقاهرة في أعمال "نجيب محفوظ"، أو البحر في أعمال "حنا مينه"، أو "مدن الملح" في أعمال "عبد الرحمان منيف"، وكتابات التي خلّد فيها مدينة عمان أو أعمال "غسان كنفاني"، إنّه عالم آخر لم تعر فيه الأعمال الروائية العربية، وقد تشير إليه أو تمسّه، ولكنها لا تسبح فيه.

تناول روائيون عرب الصحراء حاضنة مكانية لها فرادتها، ذلك لأنّ للصحراء قوانينها وسطوتها الثقيلة على إنسانها، وقدّر هذا الإنسان ومصيره، لكن هؤلاء رصدوا لحظات التحوّل في الصحراء، لحظات الاختراق التاريخية مع دخول المستعمر واكتشاف النفط، وبناء المدن، وانتشار وسائل التقنية، ومؤسسات الإدارة الحديثة، أيّ في شبكة علاقاتها مع خارجها، أذكر هنا رواية "فساد الأمكنة" لـ"صبري موسى" وروايات: "النهايات"، و"سباق المسافات الطويلة"، و"مدن الملح بأجزائها الخمسة" لـ"عبد الرحمن منيف". أمّا ما فعله "إبراهيم الكوني" فإنّه رسم الصحراء في عزلتها الكونية، وعذريتها وتمنعها، حتّى بعد تصديها لغزو الأعراب. الاحتلال الإيطالي. وإصرارها على البقاء مهاداً للحكايات العجيبة، والأساطير، وعالمها فسيحاً مقفراً للإنسان، كما لو أنّه إنسان فجر الكينونة، في صراعه مع الطبيعة أولاً، ومع أقرانه من الإنس والجن ثانياً صراع مرير يتحمّل الصحراوي بصبر ودأب وشجاعة نتائجه، التي قد تصل ذروة المأساة، يكافح من أجل البقاء، ولا يخشى الفناء إذا ما حلّت الساعة الموعودة.

ولجت الرواية من خلال هذه التساؤلات، وفرضياتها لكن بوسائل إجرائية مكنتني من المسك بدلالاتها المنبثقة من أجراً هذه الوسائل. فالنص السردي في حقيقته ليس شكلاً فقط، وإنّما هو شبكة معقّدة من العناصر الشكلية، والدلالية، بمعنى أنّه متعدد ولا يمكن أن ينحصر في بنية واحدة.

تمكنتُ بالدراسة والتحليل وفق مقارنة بنيوية تكوينية، من الإحاطة بصيغ انبناء البنية وكيفية احتوائها الحكاية والدلالة عليها، لذا لجأتُ إلى اعتماد هذا المقاربة كمسبارٍ للكشف عن القيمة البنائية، وفحص مكونات البنية السردية، من خلال التأكيد على العلاقة بين البنية، والمرجع، والاهتمام بالغرض الدلالي، بفعل الاتكاء على بعد التلقي، فالرؤية الاجتماعية كما ظهرت عند دعاة البنيوية التكوينية، في مقدمتهم "جورج لوكاتش" و"لوسيان غولدمان" الذي قال بفكرة الفاعل الجماعي، على أساس أنّ النقد الأدبي يتبلور في شكل منهجية سوسيوولوجية، وفلسفية لإضاءة البنيات الدالة، مع تحديد مستويات إنتاج المعنى عبر أنماط من الرؤية للعالم.

المقاربة البنيوية التكوينية لبت رغبتني في الجمع بين الاهتمام بالنواحي الجمالية المميزة للرواية، بالإضافة إلى أنّها لم تهمل المعالجة المضمونية التي لا غنى عنها لفهم العمل الأدبي، ثم إنّها ربطت بين الناحيتين، ربطاً منطقيّاً عن طريق تناظر البنيات. هذه الأسباب وغيرها جعلت هذه المقاربة أكثر جاذبية.

على مدار اشتغالي بالبحث وفق تصور البنيوية التكوينية لا يعني أنّ المقاربة حلّ سحري، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالنص الأدبي العربي، الذي يحمل منطقه الخاص. ولهذا فإنّني لم أغفل أهمية الزوايا الأخرى التي يمكن أن أقارب من خلالها الفعل الإجرائي لها لذا توخيت النظرة التي تفتح مجالاً لتعدّد زوايا البحث، بالتوسّع إلى مقاربات السيميائية أحياناً.

وصفت البنية ثمّ شرعت في دراسة مظاهر اشتغال العنصر الذي أسهم في تكوين البنية. من خلال حرص الروائي على ترك شخصياته تتحرّك داخل فضاء له بنيته الخاصة، وتتفاعل معه؛ لينتج عن هذا التفاعل نظام علاقات تتداخل، لا يمكن فيه فصل عملية البناء السردية عن حركة الأحداث، ورؤاها المبنية وفق تقنية الحوار السردية.

ومن أسس أيّ بحث علمي أن يبدأ من حيث انتهى من سبقة، ويؤسس لمن يأتي بعده. وعليه فإنّ النظر بعين التقدير والاحترام والوفاء لجهود السابقين بالفضل، لهو من أوليات الباحث، لذا فالرسائل الأكاديمية والدراسات التي تناولت مدونات الروائي وجدت منها

رسالة دكتوراه بعنوان "مخيال الصحراء في روايات "إبراهيم الكوني" للطالب: "علال سنقوقة"، إضافة إلى مقالات موجودة في ثلاث مجلات وهي: "مجلة فصول . مصر . ومجلة البحوث والدراسات الإنسانية . سكيكدة / الجزائر، ومجلة التواصل الأدبي . عنابة / الجزائر". بينما فتشت في مركز البحث العلمي بالعاصمة فلم أحصل على أي دراسة أخرى تناولت أعمال الروائي "إبراهيم الكوني".

صنفت البحث بعد مقدمة كانت بمثابة إطلالة على صميم الدراسة، إلى تمهيد نظري، رأيت ضرورة التعرض فيه إلى مفهوم البناء السردى، في الدراسات النقدية المعاصرة، بعدها تشكلت ثلاثة فصول، تضمن **الفصل الأول المعنون بـ: (من تشكيل البناء إلى دلالة الفضاء) توطئة، ومبحثين: ضمت التوطئة مفهوم الفضاء السردى وتناول المبحث الأول: بناء المكان السردى، وإعطاء فكرة عن أهمية المكان في رواية "التبر" كونه يمثل الأرضية التي تقوم عليها باقي عناصر البناء السردى، فالعمل الإبداعي لا يرتبط بمكان ما، إلا بقدر التناغم الذي يخلقه الزمان والمكان في علاقته بالأحداث والشخصيات، من خلال تبيان الثنائيات المُشكّلة له، وبيان علاقة هذه الأمكنة، وإسقاطاتها على شخصيات الرواية وأحداثها. أما المبحث الثاني فقد تناول أولاً: بناء الزمن السردى ثم تناول ثانياً بناء الزمن السردى في رواية التبر.**

تتألف **الفصل الثاني الموسوم بـ: (من صياغة القص إلى طبيعة البناء السردى) توطئة، ومبحثين: تحدثت التوطئة عن الشخصية بوصفها ركناً مهماً في البناء السردى وعلاقتها مع أحداث الرواية. بالنسبة للمبحث الأول فقد خُصص للحديث عن أنماط الشخصية، بينما المبحث الثاني تكلم عن نظام ترتيب الأحداث، وإقامة الحكمة.**

أما **الفصل الثالث فعنوانه: (من الرؤية السردية إلى مرتكزات الحوار) تطرقت فيه للحديث عن أهمية الرؤية السردية، ودورها في الحدث السردى كتوطئة، والمبحث الأول تضمن الحديث عن الرؤية السردية، بينما المبحث الثاني فقد تطرق لبنية الحوار السردى. وأختتمت البحث بجملة من نتائج مستخلصة من الإشكاليات المعروضة في الرواية. بالإضافة إلى ملحقين للبحث لخصت في الأول منهما الرواية، و في الآخر التعريف بالمؤلف، وقائمة مرفقة لأهم المصادر والمراجع، التي اعتمدت فيها على مجموعة من**

الدراسات، حول البناء السردى بعناصره المذكورة مثل: "بنية الشكل الروائي للباحث المغربي "حسن بحراوي"، وبنية النص السردى لـ: "حميد لحميداني" وتحليل الخطاب الروائي، وانفتاح النص الروائي لـ: "سعيد يقطين"، وجمالية المكان لـ: "غاستون باشلار" ومشكلة البنية لـ: "زكريا إبراهيم"، بالإضافة إلى مراجع أخرى كان لها دور في إضاءة جوانب مهمة في التحليل.

يبقى من الضروري أن أشير إلى بعض الصعوبات التي واجهتني. ويبدو أنها صعوبات متعلّقة أساساً بتباين التراكمات النظرية الموجودة حول البناء السردى. لعدم وجود نظرية متكاملة، مما يولّد اختلافات عميقة في مفهوماته الاصطلاحية خاصة. يضاف إليها صعوبات نتجت عن عدم وجود حدود فاصلة بين البنيوية، والبنوية التكوينية، والسيمائية، وكذا قوانين الشعرية. أيضاً قلّة الدراسات، والبحوث حول أعمال "إبراهيم الكوني"، مثلت صعوبة تواشجت كلّها فأرهقت كاهلي.

في الأخير يبقى أن أقول إنّ البحث في أيّ مجال يتطلب جهداً وإرادة قوية، غير أنّه يبقى عملاً متواضعاً، حاولت فيه معاينة عناصر البناء السردى، الذي يؤخذ من خلاله معان مختلفة كالهويّة، والوجود، ويبقى أن أؤكد أنّ هذه الدراسة تظلّ مدينة لعدد ممّن لهم الفضل على عملي هذا تأكيد للحقيقة، واعتراف بالجميل، وأخصّ بالذكر أستاذي المشرف الدكتور: "محمد عبد الهادي" الذي منحني ثقته، وكفاءته، ومكتبته الزاخرة، كما أودّ أن أقدم شكري الجزيل وتقديري البالغ للجنة المناقشة، للمجهود الكبير الذي ستبذله لقراءة هذا البحث، وتحملها عناء تقويمه. ثمّ الشكر موصول لإدارة الكلية وكلّ الأساتذة الأجلاء.

والحمد لله رب العالمين.